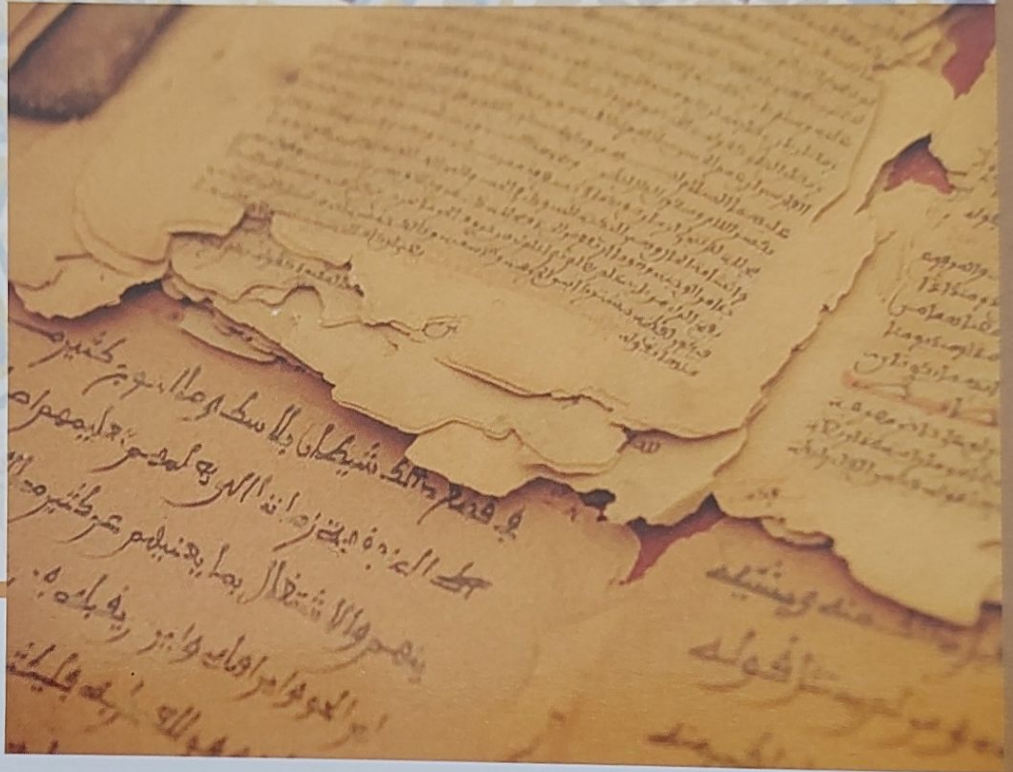




جامعة المرقب

كلية علوم الشريعة

المؤتمر العلمي الدولي الأول لعلوم الشريعة بجامعة المرقب
المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي
(جذورها - تراثها - أعلامها)



المؤتمر العلمي الدولي الأول لكلية علوم الشريعة حول

المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي

(جذورها - تراثها - أعلامها)

الجزء الثالث

الخمس

٠٤-٠٦ فبراير ٢٠١٩

منظمة النسيم للتنمية المجتمعية

Al-Naseem Organization for Social Development



ضوابط التفسير الإشاري للقرآن الكريم (تفسير رياض الأزهار وكنز الأسرار أنموذجاً)

إعداد:

د. فاتن محمد الجدي

جامعة طرابلس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله منزّل القرآن، ومعلّم البيان، والصلاة والسلام على سيد الأنام، وأكرم الكرام سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

التفسير الإشاري لون من ألوان التفسير للقرآن الكريم، يقوم على استنباط المعاني الباطنة التي أشارت إليها المعاني الظاهرة للآيات القرآنية، وهو قديم النشأة منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، وقد اختلفت فيه آراء العلماء بين مجيز ومانع، ومشيد وراذع، ذلك أن فريقاً من المبتدعين قد انحرفوا بالتفسير الإشاري عن مساره الصحيح، وجعلوه مركباً لأهوائهم وضلالاتهم، فكان من العلماء أن وضعوا له ضوابطاً وشروطاً، تحفظ القائلين به من الشطط، وتقي معانيه العميقة من العبث.

أما عالمنا الجليل أبو عبد الله محمد الخزوي الطرابلسي، صاحب تفسير "رياض الأزهار وكنز الأسرار" فقد اخترت أن يكون نموذجاً لدراسة التفسير الإشاري المنضبط، ذلك أن الخزوي قد أشار في مقدمة تفسيره أنه قد جمع فيه بين النكت العلمية، والحقائق والأسرار الصوفية، متجنباً الزيغ والشطط، معتمداً على المعنى الظاهر، ملتصقاً من رحابه الإشارة للمعنى الباطن، فرغبت في التعرف والتعريف بالمنهج التي سلكه الخزوي في استنباط التفسير الإشاري، والإشادة بجهود علماء بلادنا الكرام في التفسير، فجعلت البحث كالتالي:

المبحث الأول: التفسير الإشاري المنهج والضوابط.

المطلب الأول: التعريف بالتفسير الإشاري منهجاً وأدلة

المطلب الثاني: ضوابط التفسير الإشاري عند العلماء

المبحث الثاني: التفسير الإشاري عند المفسر محمد الخزوي

المطلب الأول: التعريف بالشيخ أبي عبد الله الخزوي

المطلب الثاني: منهج الخزوي في التفسير الإشاري

المبحث الأول: التفسير الإشاري المنهج والضوابط

التفسير الإشاري لون من ألوان التفسير الصوفي، وهو من المناهج القديمة في التفسير، وقد اختلفت آراء العلماء حوله اختلافاً بيناً، فقد قسم الذهبي التفسير الصوفي إلى نوعين؛ تفسير صوفي نظري، وتفسير صوفي إشاري، حيث اعتبر التفسير الصوفي النظري مرفوضاً جملة وتفصيلاً، لأنه يقوم على نظريات الفلاسفة، ويسعى لحمل معاني القرآن الكريم عليها دون دلالة لفظية أو معنوية، فضلاً عما يحتويه من ضلالات أخرى كنظرية وحدة الوجود وغيرها، أما التفسير الإشاري فهو موجود منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، أشارت إليه الآيات الكريمة، واعترف بوجوده العلماء، وإن كان هذا النوع من التفسير لم يخل من بعض الشطحات والمخالفات، من بعض من استعمله من المفسرين، شأنه شأن التفسير بالرأي، إلا أنه يقوم على منهج سليم، وكل ما يحتاجه هو وضع ضوابط وشروط تمنع التجاوزات، وهذا ما فعله العلماء بالفعل، حيث بينوا وصنّفوا وضبطوا كل ما يتعلق بهذا النوع من التفسير، ولا زالت جهودهم تترأ، وحاولت في هذا البحث المختصر أن أجمع ما تيسر من أقوالهم وضوابطهم في هذا الباب، لتكون مُعيناً لمن يرغب في التأليف في هذا النوع من التفسير.

المطلب الأول: التعريف بالتفسير الإشاري منهجاً وأدلة

الإشارة لغةً: "التلويح بشيء يفهم منه ما يفهم من النطق، و"أشارو وشور": أوماً: يكون ذلك بالكفِّ والعين والحاجب، وشورَ إليه بيده: أي أشار"¹.

وأما في الاصطلاح: فهي "ما يتبع اللفظ من غير تجريد قصدٍ إليه"²، أو ما يستفاد من معان خفية للألفاظ، أشارت إليها المعاني الظاهرية من غير تصريح.

والإشارة قد تكون حسية فيستعمل لها ألفاظ الإشارة المعروفة كلفظ (هذا)، وقد تكون ذهنية كالإشارة للمعنى في الكلام، كمفهوم المخالفة في الأحكام الفقهية، كما أن الإشارة قد تكون ظاهرة جليّة، وقد تكون مستترة خفيّة.

معنى التفسير الإشاري عند العلماء:

قال الزرقاني (ت1367هـ): "التفسير الإشاري: هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفيّة تظهر لأرباب السلوك والتصوف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضاً"³.

1 _ لسان العرب، لابن منظور (4/436).

2 - الغزالي أبو حامد، المستصفى (2/83).

قال ابن تيمية (ت728هـ): "وأما أرباب الإشارات الذين يثبتون ما دلّ اللفظ عليه ويجعلون المعنى المشار إليه مفهوماً من جهة القياس والاعتبار، فحالمهم كحال الفقهاء العالمين بالقياس والاعتبار، وهذا حق إذا كان قياساً صحيحاً لا فاسداً، واعتباراً مستقيماً لا منحرفاً"⁴.

وقال السيوطي (ت911هـ): "وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها، ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان"⁵.

الذهبي (ت): "التفسير الفيضي أو الإشاري .. هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة"⁶.

وقد تلاحظ معي من التعريفات السابقة أن أكثر العلماء متفقون على أن هذه الإشارات الخفية تظهر لأرباب السلوك أو ما نسميهم اصطلاحاً بالصوفية، مع أن فهم الإشارات الخفية لا يقتصر عليهم، ولا يختص بهم، بل هو منحة ربانية قد تنقدح في ذهن أي عالم يتدبر القرآن الكريم، بل قد تنقدح في ذهن المؤمن متى ما كان سليم الذوق مرهف الحس جيد الفهم، والسبب في قصر كثير من العلماء هذا النوع من التفسير على الصوفية، هو ارتباط نشأة هذا النوع من التفسير كمنهج مستقل بنشأة التصوف مذهباً وطريقة، وانتماء أكثر القائلين به والمؤلفين فيه للتصوف بشكل من الأشكال.

وفي هذا الحصر والقصر تضيق لأفق التفسير الإشاري أيما تضيق، في حين أنه بابٌ لتدبر القرآن واسع، ومشرب من مشارب التفكير ماتع، ولعل جماعة من العلماء أدركوا هذه الحقيقة، فاجتهدوا في وضع ضوابط وشروط لقبول هذا النوع من التفسير، وتحليصه من شطحات بعض الصوفية، وزيف الباطنية، وهذه الضوابط لا تضبط تفسير الصوفية فحسب، بل هي عامة لكل من أراد أن يتدبر القرآن ويثور معانيه.

حكم التفسير الإشاري وأقوال العلماء فيه

مما لا يخفى على أهل الاختصاص أن أقوال أهل العلم تباينت وتضاربت حول جواز أو منع التفسير الإشاري، ذلك أن النماذج التي وجدت لهذا النوع من التفسير لم تخلو من الشطحات بل والمخالفات في مواضع ليست بالقليلة، وإن كان أغلب العلماء متفقين أن للقرآن وجوهاً من المعاني، وأن

3 - الزرقاني، مناهل العرفان (56/2).

4 - ابن تيمية، مجموع الفتاوى (28/2).

5 - السيوطي، الإقتان، دار الفكر، لبنان 1996م، (485/2).

6 - الذهبي، التفسير والمفسرون (261/2).

البشر متفاوتين في إدراك هذه المعاني، فتفاوتهم في التفكير والتقوى، ولذلك وجب استعراض أدلة المجيزين والمنايعين، وحجتهم فيما ذهبوا إليه.

أدلة المجيزين للتفسير الإشاري:

1. التفكير والتدبر في القرآن الكريم أصل من أصول استنباط العلوم منه، والتفكير والتدبر يكون عادة لاستنباط معان زائدة عن المعاني الظاهرة، التي يمكن أن يعقلها القارئ دون جهد أو عناء، ومن الآيات الحاتئة على التدبر والتفكير قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:29]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:24]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:21].

2. ما دلّت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من أن العلم ليس كله مقروء ومنقول، بل هناك علم لدني وفتوحات ربانية، يفتح الله بها على من يشاء من عباده الصالحين قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:282]، والخبر الوارد عن العبد الصالح في سورة الكهف حيث قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65]، وقصة داوود وسليمان عليهما السلام وكيف حكم كل منهما حكماً يخالف الآخر في قضية الغنم والحريث فقال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء:80]، كل هذا ينتج عنه تفاوت البشر في الأفهام والعلم، وبالتالي في تفاوت قدراتهم في استنباط المعاني من القرآن الكريم.

3. ما ورد من الآثار عن الصحابة الكرام تثبت أن للقرآن ظاهراً وباطناً، مثل ما ورد عن علي رضي الله عنه، عندما سُئِلَ: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: "لا والذي فلق الحبة، وبرأ النّسمة، ما أعلمه إلا فهماً يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ"⁷؛ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "من أراد العلم فليؤثر القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين"⁸.

4. ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه - أنه قال: "كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليربهم. قال: ما

7 - رواه البخاري، صحيح البخاري، باب الجهاد والسير 68، 1110/3.

8 - ابن أبي شيبة، المصنف (126/6)، البيهقي، شعب الإيمان، (347/3)، الطبراني، المعجم الكبير

(135/9)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح، مجمع الزوائد (165/7).

تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له. قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول"9، وقد عقب ابن حجر عن القصة قائلاً: "وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم"10.

دوافع العلماء في إنكار التفسير الإشاري:

1. التفسير الإشاري ضرب من ضروب التفسير بالرأي، والذي قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً، فإذا جنح التفسير الإشاري إلى التفسير بمجرد الرأي بلا دليل فينطبق عليه أسباب تحريم التفسير بالرأي المذموم.
 2. تجاوز جماعة ممن خاضوا في هذا النوع من التفسير الحدود والضوابط التي وضعها العلماء والمفسرون، حتى وصل الحال ببعضهم إلى الإلحاد والكفر.
 3. إنكار بعض القائلين به لظاهر القرآن كالباطنية، وزعمهم أن المراد بالقرآن باطنه وليس ظاهره، وهذا سيؤدي إلى إنكار الشريعة وهدمها من الأساس.
 4. أن المعاني التي كانوا يستنبطونها مبتدعة ليست من قبيل ما استنبطه السلف الصالح، وأن الفرق الضالة اتخذتها سبيلاً للتعبير عن معتقداتها وتحميل الآيات القرآنية ما لا تحمل.
- كل الأسباب السالفة الذكر جعلت بعض العلماء لا يجيزون العمل بالتفسير الإشاري، سداً للذرائع، وصوناً للعقيدة والشريعة من الإفساد.
- لكن العلماء المحيذين للتفسير الإشاري كان موقفهم مختلفاً، حيث اتجهوا إلى وضع الضوابط والشروط لقبول هذا النوع من التفسير، بدلاً من منعه مطلقاً، ذلك أنهم أدركوا أهمية التفسير الإشاري في استنباط المعاني إذا تقيد فيه المفسر بالضوابط والشروط.

9 - صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب (قوله فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)، ح(4970)، (179/6).

10 - ابن حجر، فتح الباري (736/8).

المطلب الثاني: ضوابط التفسير الإشاري عند العلماء

أنزل الله القرآن الكريم بلسان عربي مبين، له معان ظاهرة يدركها العربي الذي سلمت لغته، بمجرد القراءة أو السماع، وله معان باطنة لا تدرك إلا بالتفكير والتدبر، من أولي الأبواب والبصائر، والتفسير الإشاري باب من أبواب الوصول إلى معاني القرآن الباطنة، بشروط وضوابط بينها العلماء على تتابع الأزمان، وقبل أن أعرض خلاصة هذه الشروط يحسن استعراض بعض آراء العلماء في التفسير والإشاري وضوابطه مرتبة ترتيباً تاريخياً.

● أبو حامد الغزالي (ت505هـ) قال: "ما من كلمة من القرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك، وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم، وصفاء قلوبهم، وتوفر دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب ويكون لكل واحد حد في الترتي إلى درجة أعلى منه، فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً فأسرار كلمات الله لا نهاية لها، فتنفذ الأبحر قبل أن تنفذ كلمات الله عز وجل، فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير، وظاهر التفسير لا يغني عنه... فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب ثم لها أغوار وراء هذا... وأسرار ذلك كثيرة ولا يدل تفسير ظاهر عليه، وليس اللفظ هو مناقضاً لظاهر التفسير بل هو استكمال له، ووصول إلى لبابه عن ظاهره، فهذا ما نورده لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر والله أعلم"11.

● ابن تيمية (ت728هـ) قال: "وأما أرباب الإشارات الذين يثبتون ما دلّ اللفظ عليه، ويجعلون المعنى المشار إليه مفهوماً من جهة القياس والاعتبار، فحالمهم كحال الفقهاء العالمين بالقياس والاعتبار، وهذا حق إذا كان قياساً صحيحاً لا فاسداً واعتباراً مستقيماً لا منحرفاً"12.

● ابن قيم الجوزية (ت751هـ) صنف ابن القيم تفسير الناس على ثلاثة أصول، فذكر أن الصنف الثالث هو: "وتفسير على الإشارة والقياس؛ وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط: أن لا يناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحاً في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين الآية ارتباطاً وتلازماً"13.

11 - الغزالي، إحياء علوم الدين (293/1).

12 - ابن تيمية: مجموع الفتاوى (28/2).

13 - ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن ص124.

- الشاطبي(ت790هـ): "الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب، الظاهرة للبصائر، إذا صحّت على كمال شروطها فهي على ضربين: أحدهما: ما يكون أصل انفجاره من القرآن، ويتبعه سائر الموجودات، والثاني: ما يكون أصل انفجاره من الموجودات جزئياً أو كليها، ويتبعه الاعتبار في القرآن. فإن كان الأول: فذلك الاعتبار صحيح، وهو معتبر في فهم باطن القرآن من غير إشكال؛ لأن فهم القرآن إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة على ما يليق بكل واحد من المكلفين، وإن كان الثاني فالتوقف عن اعتباره في فهم باطن القرآن لازم، وأخذه على إطلاقه فيه ممتنع، لأنه بخلاف الأول، فلا يصح إطلاق القول باعتباره في فهم القرآن"14.
 - السيوطي(ت911هـ): "قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم: فهذا يدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً... ولا يجوز التهاون في حفظ الظاهر بل لا بد منه أولاً إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يُحْكَمْ التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب"15.
 - محمد حسين الذهبي(ت1389هـ)، يقرر الذهبي أن الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن الكريم له ظهر وباطن، ويقول: "أما المعنى الباطن، فلا يكفي فيه الجريان على اللسان العربي وحده، بل لابد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى في قلب الإنسان يصير به نافذ البصر سليم التفكير، ومعنى هذا أن التفسير الباطن ليس أمراً خارجاً عن مدلول اللفظ القرآني، ولهذا اشترطوا لصحة المعنى الباطن شرطين أساسيين. أولهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب بحيث يجري على المقاصد العربية. وثانيهما: أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض"16.
- نستخلص مما سبق من أقوال العلماء في التفسير الإشاري، وأقوال علماء آخرين مما لا يتسع المجال لذكرهم في هذا البحث، أن هناك ضوابطاً وشروطاً لقبول التفسير الإشاري، سأحاول تجميعها وعرضها باختصار في النقاط التالية.

ضوابط التفسير الإشاري

14 - الشاطبي، الموافقات ص711.

15 - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (487/2).

16 - الذهبي، التفسير والمفسرون (265/2).

1. تحكيم المعنى الظاهر للآيات، وأعني به اعتبار المعنى الظاهر للألفاظ المقرر في لسان العرب هو الأساس في التفسير، وهو المراد أولاً، وأي معنى آخر يستنبط من الآيات يجب أن ينسجم مع المعنى الظاهر ولا يتناقض معه.

2. أن تكون هناك إشارة واضحة في المعنى الظاهر تشير إلى المعنى الباطن وتدل عليه، أي يكون بين المعنيين ارتباط واضح وانسجام في المعنى دون تكلف، وإلا حملنا الآيات مالم تحتمل، وفسرنا القرآن بالرأي من دون دليل، وهذا لا يجوز، كما قال ابن تيمية: "وأما اللذين يخطئون في الدليل لا في المدلول فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء وغيرهم يفسرون القرآن بمعان صحيحة؛ لكن القرآن لا يدل عليها"¹⁷.

3. أن يكون التفسير الإشاري صحيحاً في نفسه، وذلك بأن لا يتناقض المعنى مع أصول الدين وكلياته، ولا يكون له معارض شرعي أو عقلي، ويستحسن أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.

4. أن لا يكون فيه إلغاز أو تشويش على أفهام الناس، وذلك مثل أن يحتوى على مصطلحات خاصة بفتنة معينة كالصوفية أو غيرهم، بحيث لا يفهمها إلا من كان من هذه الفتنة، لأن القرآن نزل لجميع الناس، والتفسير الغريب على الأفهام فيه فتنة وضرر على الدين، قال علي رضي الله عنه: "حدثوا الناس بما يعرفون، أتخبون أن يكذب الله ورسوله"¹⁸. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"¹⁹.

فهذه الشروط الأربعة سالفه الذكر، يجب توفرها في التفسير الإشاري حتى يكون مقبولاً، وبدونها لا يصح قبول هذا النوع من التفسير.

المبحث الثاني: التفسير الإشاري عند المفسر محمد الخروبي

المطلب الأول: التعريف بالشيخ أبي عبد الله الخروبي

هو أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي مولداً ونشأة، الجزائري مدفناً، عالم من علماء ليبيا في القرن العاشر الهجري، فقيه، صوفي، خطيب، مفسر، من الأعلام المشهورين في المغرب العربي في

17 - ابن تيمية، مجموع الفتاوى (362/13).

18 - البخاري، الصحيح، باب العلم، رقم 49، (59/1).

19 - مسلم، الصحيح، المقدمة رقم 3، (11/1).

زمانه، وله العديد من الآثار العلمية،²⁰ ولد بمدينة طرابلس، بقرية قرقارش المعروفة في ساحل طرابلس الغربي، حيث كانت هذه القرية منفصلة عن المدينة طرابلس، لكنها الآن دخلت فيها وأصبحت جزءاً منها.

والده هو الشيخ الصالح علي الخروبي المعروف بالخروبي الكبير، كان عالماً صالحاً مرموق المكانة مهيب الجانب مذكوراً بين الناس بالخير والتقوى محبوباً منهم.

أما والدته فهي السيدة زهرة بنت الحاج محمد البوديكي المصري، من مدينة مصراتة. وكان والدها من أصحاب الشيخ أحمد زروق، وقيل أنه كان كلما زاره ذبح له ديكاً ولهذا سمي "بو ديكي"، وقد كان من أهل القرآن ومعلميه.

رجح الدكتور الفاضل إبراهيم رفيدة أن مولد أبي عبد الله الخروبي كان بعد سنة 886هـ/1481م، وقد توفي والده وهو صغير، وتولت أمه تربيته، ثم أصحاب والده رحمه الله²¹.

الاتجاه الصوفي عند الشيخ أبي عبد الله الخروبي:

إن المتتبع لسيرة الشيخ الخروبي ليدرك بكل وضوح أن الشيخ الفاضل قد نشأ وترعرع في مناخ صوفي بامتياز، فقد كان والده الخروبي الكبير رحمه الله من كبار الصوفية وعلمائهم البارزين، وعلى الرغم من أن الوالد قد توفي وأبو عبد الله لا يزال طفلاً، إلا أن مكانة والده كان لها تأثير في توجيه تنشئته إلى التصوف، فبعد وفاته، كان المرابي والمعلم الأول له والدته رحمه الله حيث حرصت على تنشئته هو وأخوته تنشئة صالحة، وتعليمهم القرآن الكريم والفرائض، ومن ثم تولى تربيته صحابة والده الذين صاروا فيما بعد أشياخه، وقد تحدث عنهم شيخنا الخروبي وعرف بهم، وذكر فضلهم عليه في التعليم والتربية، وأردف قائلاً: "وكل ما أتينا به من ذكر أشياخنا الكرام وأساتدتنا العظام فهو تصديق لقولنا: "رباني أشياخي"، وكل ما ذكرناه من أحوالهم الزكية ومقاماتهم العلية وأفعالهم السنية، فهو تصديق لقولنا: "أسانيد في الطريقة"، ونعني بالطريقة طريقة السادات الصوفية رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم"²².

وقد تدرج الشيخ الخروبي في مدارج الصوفية حتى صار من أقطابها، وأعلامها المشهورين، وله فيها مؤلفات عديدة، مما يؤكد عمق الاتجاه الصوفي عند الشيخ وتأثيره عليه.

مكانته العلمية:

20 - ينظر: د. محمد مصباح عقيلة، منهج الإمام الخروبي في تفسيره (رياض الأزهار وكنز الأسرار) ص 7،

21 - د. إبراهيم رفيدة، أعمال ندوة التواصل الثقافي ص 133-135.

22 - د. إبراهيم رفيدة، أعمال ندوة التواصل الثقافي، ص 142.

لم يقتصر علم الشيخ على المعرفة الصوفية فحسب، بل كان يتمتع بمكانة علمية رفيعة، في علوم ومعارف عصره، تجلّت في نشاطه العلمي، ورحلاته في المغرب العربي، ومحاوراته لعلماء فاس ومراكش، وبعض القساوسة، ومحاربتة للبدع، ومؤلفاته العلمية، والتي لا يزال قسم منها مخطوطاً، واشتغاله بالتدريس والخطابة والإفتاء في الجزائر، حتى توفاه الله تعالى بالجزائر سنة 963هـ عن عمر ناهز الثمانين، رحمه الله رحمة واسعة، ومما ذكره المؤرخون من مؤلفاته ما يلي:

1. "رياض الأزهار وكنز الأسرار" في تفسير القرآن الكريم.

2. الدرة الشريفة في الكلام على أصول الطريقة.

3. الأنس في شرح عيوب النفس.

4. الجمل الوهيبية على الحكم العطائية.

5. مزيل اللبس عن آداب وأسرار القواعد الخمس.

القيمة العلمية لتفسير "رياض الأزهار وكنز الأسرار":

تحدث من سبقني من المحققين والباحثين عن القيمة العلمية الكبيرة لهذا التفسير، من حيث أصالة مصادره، ورسالة منهجه، التي تعتمد على التفسير بالمأثور، واهتمامه بالمعاني اللغوية والبلاغية، في حدود ما يخدم النص القرآني، واجتنابه للإطناب في شرح مسائل العقيدة، واختلاف علماء الأصول والفقهاء، واقتصره في علم القراءات على ما يفي بالغرض من بيان لحكم شرعي، أو قراءة تتعدد الأحكام بتعدددها. إضافة إلى الإضافات العلمية المميزة التي أضافها الشيخ مما فتح الله به عليه من المعارف والعلوم، وإن كنت سأسلط الضوء في هذا البحث، على المعارف الصوفية التي ذكرها في ثنايا تفسيره؛ لاستنباط منهجه فيها، ذلك أنه أزم نفسه بمنهج معين سنتبين معالمه في الفقرات التالية.

المطلب الثاني: منهج الخروي في التفسير الإشاري

لن أتعرض لدراسة منهج الخروي العام في تفسيره، فقد سبقني إليه الكثير من الباحثين الأفاضل، ولكن ما اعتقد أنه إضافة في هذا البحث هو منهج الشيخ في التفسير الإشاري تحديداً، كيف كان يستنبط المعاني الخفية للآيات، وهل وضع لنفسه ضوابطاً في تفسيره الإشاري؟ وهل التزم بالضوابط التي وضعها العلماء للتفسير الإشاري المقبول؟ هل كانت له إضافات وإشراقات في هذا الجانب أم كان مجرد ناقلٍ عمّن سبقوه؟ هل كانت له عين ناقدة فيما كتبه الصوفية قبله أم كان يتجنب النقد؟ وهل اقتصر تفسيره الإشاري على المعارف الصوفية فقط، أم كان يلمح بالإشارات الدالة على المعارف الأخرى؟

هذه الجوانب وغيرها هو ما سأحاول تسليط الضوء عليه في هذه الدراسة الموجزة، عبر دراسة نماذج من تفسير رياض الأزهار وكنز الأسرار.

الإمام الخروبي يتحدث عن منهجه في التفسير:

إنه لمن الإنصاف أن نفسح المجال للشيخ الجليل ليعرفنا بمنهجه في تفسيره، قبل أن نحوض في دراسته، فصاحب التفسير أدرى بتفسيره، وقد تحدّث رحمه الله عن منهجه في التفسير في مقدمة كتابه قائلاً:

"أشار عليّ بعض الإخوان أن أضع في التفسير تأليفاً يحتوى على نكات علمية، وحقائق وأسرار صوفية يكون تكمله لما تقدمه من التواليف، وكالحاشية لما سبقه من التصانيف فاستخرت الله في ذلك، وانشرح له الصدر، وإن لم يكن صالحاً أن أسلك تلك المسالك، ولما كان من تقدم من الأئمة القدماء، ومن بعدهم من الشيوخ العلماء مقاصدهم مختلفة، وأنحاءهم وآراؤهم متباينة في تفاسيرهم، فمنهم من اشتغل بالكلام على ظاهر القرآن، واقتصر على علومه الظاهرة كاللغة والنحو والقراءات، والمعاني والبيان، وفقهه وناسخه ومنسوخه وتفصيل أحكامه وبيان حلاله وحرامه، وغير ذلك من العلوم المتعلقة بظاهرة كالإمام ابن عطية، والزحشري، وابن العربي وغيرهم ممن يكثر تعدادهم، ومنهم من تكلم على ما يتعلق بباطنه من الحقائق والأسرار كالسلمي ومن نحا نحوه، فهؤلاء وإن قصدوا الحقائق، وعثروا على اللباب لم يسلموا من الملامة، وأولئك لم يشتغلوا بذلك، لكنهم سلكوا مسلك السلامة.

ونحن قصدنا في كتابنا هذا أن نجتمع بين الطرفين ليكون جامعاً بين الشريعة والحقيقة، فنأتي من علوم ظاهرة بعلم التفسير، إذ هو العلم المراد لذاته، وباقي العلوم دالة معينة، ولنأت من علوم باطنه بالحقائق البادية من آياته، وبالأسرار التي تضمنتها تراكيب جملة وألفاظه، مما سبق الغير إليها أو مما لم يعثر أحد عليها، ولنقدم التفسير ليكون قاعدة لما نأتي به من الحقائق والأسرار، إذ ذلك أبلغ في نيل الغرض، وأنقي للعرض، وإن دلّت الآية على تعلّق أو تحلّق أو تخلّج أو تخلص أنه على ذلك بلفظ موجز.. وإنما سلكت في كتابنا هذا المسلك الغريب، ونحوت فيه هذا المنحنى العجيب ليكون جامعاً بين الشريعة والحقيقة فيعتمده كل طالب نجيب وكل صوفي لبيب فكان كتابنا - والحمد لله - جامعاً بين العلم والعمل"23.

إن القراءة المتمعنة لمقدمة التفسير تمكنا من رسم المعالم الأولية، لمنهج أبي عبد الله الخروبي في تفسيره الإشاري، والتي سألخصها في النقاط التالية:

1. الباعث على وضع هذا التفسير بطلب من الصحبة الصالحة، هو الجمع بين النكت العلمية والحقائق والأسرار الصوفية، وهذا حسن من حيث اعتبار المعنى الظاهر إلى جانب الباطن.

2. أن الهدف من وراء تأليف التفسير بهذه المنهجية هو الجمع بين "الشريعة والحقيقة" وهذا التعبير هو من اصطلاحات الصوفية، فهم الذين قسموا الدين إلى شريعة وحقيقة، ولم يكن معروفاً قبلهم، وهذا المصطلح محل نقد من بعض العلماء.

3. صنف المشتغلين بعلوم القرآن إلى فريقين، فريق اشتغل بالعلوم الظاهرة كعلوم اللغة والفقه والحلال والحرام، كابن عطية والزنجشري وأمثالهم، وهؤلاء سلكوا مسلك السلامة _ حسب قوله _ ، وفريق آخر اشتغلوا بالعلوم الباطنة للقرآن، بحثاً عن الحقائق والأسرار كالسلمي ومن نحا نحوه، وهؤلاء لم يسلموا من النقد والملامة، وهذا يدل على سعة اطلاعه، وعلى إقراره للنقد الموجه لمن خرج عن جادة الصواب من الصوفية، وأيضاً يشير إلى أنه سينتقي من أقوال الصوفية ما سلم من النقد، وحتى تسلم المعاني من النقد يجب أن تكون صحيحة في نفسها، ولا يوجد لها معارض من الشرع، وهذان ضابطان من ضوابط التفسير الإشاري عند العلماء.

4. قَصَرَ علم التفسير على العلوم الظاهرة، "فنأتي من علوم ظاهره بعلم التفسير، إذا هو العلم المراد لذاته"، وجعل الحقائق والأسرار الصوفية من العلوم الباطنة وليست من التفسير، حيث قال: "ولنقدم التفسير ليكون قاعدة لما نأتي به من الحقائق والأسرار"، وهذا من فطنته _ رحمه الله _ لأنه بذلك استبرأ لنفسه من الملامة قبل أن يبدأ، فأخرج المعاني الباطنة من دائرة التفسير، واعتبرها من الفوائد والحكم، وإن كانت مستوحاة من الجمل والألفاظ القرآنية، فهي عنده من باب التعلّق والتحلّق والتخلّي، وهذه من مصطلحات الصوفية.

5. أقرّ تحكيم ظاهر القرآن على باطنه، فاشتراط أن تكون المعاني الباطنة مستنبطة من معاني الآيات الظاهرة، "ولنأت من علوم باطنه بالحقائق البادية من آياته وبالأسرار التي تضمنتها تراكيب جملة وألفاظه"، وبذلك أقر الضابط الأول والأهم من ضوابط التفسير الإشاري.

6. بيّن أنه فيما يخص المعاني الباطنة سينقل عن غيره، ويأتي بجديد من استنباطه لم يُسبق إليه، وفعلاً ذكر المحققون أنه قد نقل عن بعض أعلام الصوفية كالجنيد، والسلمي، والحارث بن أسد المحاسبي، وابن نصر القشيري، وابن عطاء الله السكندري، إضافة لما استنبطه هو من المعاني والأسرار بالتأمل والموهبة والتوفيق الرباني.

7. اشتراط أن يكون في الآية دليل أو دلالة على المعنى الباطن، يعني أن يشير المعنى الظاهر إلى المعنى الباطن، "وإن دلّت الآية على تعلق أو تحلق أو تخلّ أو تلبس على ذلك". وهو هنا يقر الضابط الثاني من ضوابط التفسير الإشاري عند العلماء، ألا وهو وجود الإشارة الواضحة الدالة على المعنى المستنبط.

8. أشار الشيخ إلى أنه سيتعرض للمعارف الصوفية بإيجاز، وفعلاً لقد التزم الشيخ بذلك، حسب ما اطّلت عليه في الأجزاء المحققة من هذا التفسير، وما أشار إليه المحققون لهذه الأجزاء.

يتبين لنا من دراسة المقدمة أن شيخنا الفاضل على دراية بضوابط التفسير الإشاري عند العلماء، وهو مقرر لها راغب في الالتزام بها، بقي لنا أن ندرس نماذج من تفسيره الإشاري، لتتعرف كيف ضبط رحمه الله ما نقله عن غيره، وما أضافه من استنباطه.

نماذج من التفسير الإشاري للشيخ أبي عبد الله الخروي

بداية وقبل دراسة نماذج من تفسير شيخنا الخروي والتعليق عليها، يجب أن نعلم أن الشيخ قد التزم في منهجه في التفسير، بتقديم التفسير بالمأثور وبيان المعنى الظاهر قبل المعنى الباطن (إن وجد)، هذا ما أكدّه المحققون الذين حققوا أجزاء من تفسير الشيخ الخروي رحمه الله، لذلك لن أشير إلى ذلك عند حديثي عما ساقه من المعاني الباطنة للآيات، والتي سأحاول دراستها من ناحية توفر ضوابط التفسير الإشاري التي حددها العلماء، وهذه بعض النماذج:

1. عند تفسير لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 97]، بين سر تخصيص القلب بإنزال الذكر عليه فقال: "لأنه مستودع العقل والعلم وتلقين المعارف، وقال: وإنما حُصَّ القلب بالذكر لأنه حُصَّ بالتنزيل، وإنما خص به لأنه خزانة الحق تعالى فهو حاو للأسرار، ومنبع العلوم والأنوار، ومعدن الحقائق اللطيفة والأسرار الشريفة، ومحل التجلي العظيم، ومهبط النور الأتم الكريم، وهو الملك المطاع، والقطب الذي إليه منتهى سمت الارتفاع، وعليه مدار العوالم الإنسانية والأكوان النورانية"²⁴.

قلت: وتفسيره هذا فضلاً عن روعته، فهو صحيح من حيث المعنى بل تويده الآيات القرآنية والحقائق العلمية، فالقلب (مستودع العقل والعلم وتلقين المعارف)، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: 46]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، وأما اختصاص القلب بالذكر فبيّن، لأن المسلم إذا ذكر بلسانه وقلبه غافل لم يعتبر ذاكراً، فالدعاء مثلاً وهو من أنواع الذكر يشترط فيه حضور القلب، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه))²⁵.

والقلب: (معدن الحقائق اللطيفة والأسرار الشريفة)، فإليه نظر الشارع الحكيم، فإذا أكره المسلم على عمل لا يريده قلبه، كان الجزاء على ما وقر في قلبه؛ لأنه هو الحقيقة، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ

24 - د. أحمد أبو زيد، منهج الخروي في تفسيره معالم كاشفة، من أعمال ندوة التواصل الثقافي، ص 288.

25 - رواه الترمذي: رقم الحديث 3479، وهو حديث صحيح، كما في صحيح الترمذي: 2766.

بَعْدَ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿النحل: 106﴾

والقلب أيضاً: (هو الملك المطاع، والقطب الذي إليه منتهى سمت الارتفاع)، أرايت كيف تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هيمنة القلب على الجوارح والبدن حيث قال صلى الله عليه وسلم: ((ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب))²⁶.

والآيات والأحاديث والآثار كثيرة في مكانة القلب ودوره في حياة المؤمن، لا يتسع المقام لذكرها، وإنما أردنا التمثيل لبعض المعاني.

2. عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]، أشار الخروبي أن ما وصف به المؤمنون في هذه الآية هي أوصاف كمالات، وأن " (وَجِلَّتْ) معناه: فزعت، والوجل: الفزع وهو من الأوصاف القلبية، فالقلب إذا سكن فيه نور الإيمان أنبت فيه شجرة الخوف، فأثمرت بثمار الهيبة، فإذا ذكر الله هبت رياح الذكر على تلك الشجرة، فاضطربت، واضطرب القلب باضطرابها، وهاج خوفه بما استطعم من ثمارها، إلا أن خوف كل قلب بحسب رتبته، ووجله بحسب نسبته، فالقلب المستوطن الجلال يكون خوفه من العقاب، والمستوطن حضرة الجمال يكون خوفه من رؤية الأسباب، والمستوطن حضرة القرب يكون خوفه من وقوع الحجاب، والكل يتناولهم قوله: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾²⁷.

قلت: وفي إشارة الخروبي إلى أن ما ذكر من أوصاف المؤمنين في هذه الآية هي أوصاف كمالات، معنى دقيق ومهم، أي أن هذه الصفات المذكورة يتصف بها من اكتمل إيمانه، أو بلغ مرتبة عليا من الإيمان، ولعله _ رحمه الله _ استنبطه من بقية الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، أي أن الإيمان مراتب وهو يزيد وينقص، وهو معنى صحيح، ثم ساق صورة تشبيهية للخوف في قلب المؤمن، وجعل خوفه أنواعاً ومراتب، فمن خائف من العقاب، ومن خائف من إحباط العمل برؤية الأسباب، ومن خائف من الحرمان من القرب بالحجاب، وهذه تأملات ورقائق لا تتعارض مع الشرع والعقل فيما أعلم. والله أعلم.

26 - متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه 1/ 28 (52)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات 3/ 1219 (1599).

27 - الخروبي، رياض الأزهار، تح: سعيد الساعدي عبد الله ص41.

3. عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مریم:96]، قال الإمام الخروي: "واعلم أن هذا الود الذي يجعله الله للذين ءامنوا، وعملوا الصالحات، إنما هو تفضل منه تعالى عليهم، فيزرع ذلك في قلوب العباد، من غير تودد منهم إليهم، ولا استعمال الأسباب التي يكتسب بها الناس مودات القلوب، وإنما ذلك اختصاص إلهي، وفتح ربانية،... فائدة: من خاف سطوة ملك جائر، وأراد عطف قلبه عليه، واستجلاب مودته إليه، ويأمن من شره، فإذا قابله بوجهه يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مریم:96] الآية، ويكرر قوله: ﴿وُدًّا﴾ ثلاثاً، فإن الله تعالى، يؤمنه من شره، ويعطف قلبه عليه، ويرزقه مودته"28.

قلت: وما ذهب إليه شيخنا الخروي في إشارته، يؤيده المعنى اللغوي للفعل جعل فهو بمعنى صير وأوجد، كم يؤيده استعمال القرآن الكريم لهذا الفعل، في مواطن أخرى، تشير إلى أن هذا الجعل هو هبة من الله وليس للمؤمنين سعي فيه، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:23]، أما الفائدة التي ذكرها (قراءة الآية عند الملك الجائر) فلا أعلم لها دليلاً شرعياً مؤيداً ولا مانعاً، ولعلها من استنباطه _رحمه الله_، وكأني به يقول إذا صدقَ إيمان العبد بكلام ربه، صدق الله ظنه به وحفظه مما يخاف، وفي هذا تعميق للإيمان بالله، واستحضار لعظيم قدرته في المواقف الصعبة.

4. عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:4]، قال: "ذهب بعض الصوفية في معنى هذا اللفظ، على أن الوقف على قوله: ﴿عَلَى﴾ ثم بيتدئ ﴿الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، قال صلاح الدين الصفدي: وهذا حسن، ولكن لا يوافق رسم المصحف، فإنه إذا وقف على ﴿عَلَى﴾، ينبغي أن يكون من علا يعلو، ولا يكتب علا من العلو إلا بالألف، لأنه من علوت، ولم يكتب ﴿عَلَى﴾ هنا، وبالمصحف إلا بالياء؛ لأنه حرف جر انتهى"29.

قلت: لقد أورد شيخنا الخروي هنا تفسيراً للآية لبعض الصوفية، هو يعلم أنه لا يصح، فأورد معه سبب عدم صحته، وذلك ليعلم الصوفية الذين يقرؤون كتابه، أنه لا يشترط في التفسير أن يكون المعنى صحيحاً في نفسه فقط، بل يجب أن يتضمنه معنى الآية.

28 الخروي، رياض الأزهار وكنز الأسرار، تح: الصادق الراقوي، ص144.

29 - الخروي، رياض الأزهار، تح: الصادق الراقوي، ص149.

5. عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِأَيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه:42]، قال: "وفي الآية إشارة إلى أن الدوام على الذكر من غير فتور، ولا تقصير منيل للمقاصد، ومبلغ إليها، فأهل المقاصد الحسنة مأمورون بالدوام على الذكر في حركاتهم وسكناتهم، وبذلك يبلغون مقاصدهم"30.

قلت: ما أطف هذه الإشارة وأصدقها، وفصائل ذكر الله لا يمكن إحصائها في هذا المقام وحسبنا فيها قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:45]، وهذا الحديث الشريف: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَأَرْكَأَهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى))31.

أما عن كون دوام الذكر منيلاً للمقاصد فيدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ عَفْوًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:10-12]، فالاستغفار هنا وهو من الذكر، كان سبباً لنيل الأمطار والأموال والبنين، فالمعنى الذي ساقه الشيخ صحيح وله ما يؤيده من الشرع.

6. عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:82]، قال الخروبي: "فظاهر الآية ارتباط الإيمان بالعمل الصالح والهداية، وهذا على أن يكون المراد بالعمل الصالح الدال على صدق الإيمان؛ إذ لا بد لكل عمل باطن من دلالة في الظاهر تدل على صدقه" . ثم ينقل عن ابن عطاء رأيه في معنى الاهتداء بعد الإيمان والعمل الصالح فيقول: "والذي يقوى في معنى ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أن يكون ثم حفظ معتقداته من أن تخالف الحق في شيء من الأشياء، فإن الاهتداء على هذا الوجه غير الإيمان وغير العمل، ورب مؤمن عمل صالحاً قد أوبقه عدم الاهتداء، كالتقديرية والمرجئة وسائر أهل البدع والخوارج، فمعنى ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ ثم مشى في عقائد الشرع على طريق قويم"32.

قلت: اشترط الشيخ الخروبي أن يكون لكل عمل باطن دلالة في الظاهر من العمل الصالح، وبهذا هو يخالف غلاة الصوفية فيما ذهبوا إليه من اعتمادهم على العمل الباطن، واعتقادهم أنه هو المنجي، دون العمل الظاهر، أما ما نقله عن ابن عطاء الله السكندري في معنى الاهتداء فجيد ومفيد ويشير إليه معنى الآية، وهو أن التوبة والإيمان والعمل الصالح هم الأساس، لكنهم لا يجدون نفعاً إذا حصل خلل في

30 - الخروبي، رياض الأزهار، تح: الصادق الراقوبي، ص172.

31 - أخرجه الإمام أحمد(ج6/252)، والترمذي(9/258)، وابن ماجه(2/1245)، وصححه الحاكم في مستدرکه(10/69).

32 - المحرر الوجيز(4/57)، الخروبي، المصدر السابق .

العقيدة، فيجب على المؤمن أن يطلب الهدى في عقيدته، ويتحرى فيها نصح الأنبياء والصالحين، وهذا ما أمرنا به في سورة الفاتحة، أن نسأل الله الهدى كل يوم، بعد إقرارنا بالإيمان وقيامنا بالعمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)﴾ [الفاتحة: 6، 7]، فالاهتداء أمر غير الإيمان والعمل الصالح، واستنباط ذلك من الآية، واضح الدلالة سليم المعنى.

7. عند تفسيره لقوله قوله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ [الأنبياء: 1]، قال الخروبي: "وفي الآية إنذار وتحذير، وإشارة إلى طرح الأمل، والجد في الأعمال بحسب قصر الأمل، فإن من طرح أمله، وقصر أجله، جد في عمله، وفيها أيضاً تنبيه لذوي الألباب على الزهد في الدنيا، والإعراض عنها، والرغبة في الآخرة" 33.

قلت: الآية الكريمة تشير إلى ما أورده شيخنا من التفسير، فالآية فيها إنذار يحمله الفعل (اقترب) وتحذير يحمله لفظ (حسابهم)، ودعوة إلى قصر الأمل، لأن طول الأمل هو سبب الغفلة، وترغيب في الزهد، لأن الإقبال عن الدنيا هو سبب الإعراض عن الآخرة.

8. قوله تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المستبحين (143) للبث في بطنه إلى يوم يُبعثون﴾ [الصفات: 143، 144]، قال الخروبي: "تنبيه: أيها العبد اجعل دار دنياك كبطن حوت يونس له فلا تنس فيها ذكر مولاك لعله أن ينقذك من سجن هواك" 34.

قلت: يشير شيخنا الفاضل هنا إلى معنى لطيف، وهو أن الدنيا هي بمثابة السجن للمؤمن، وأن قيوده فيها هي هواه، وأن السبيل للنجاة من السجن والقيود، هو دوام الذكر والتعلق بالله تعالى، وهو تشبيه بليغ يشير إليه معنى الآية بلا تكلف، وله ما يؤيده من الشرع، وكثيرة هي الآيات التي أشارت إلى قيد اتباع الهوى وأنه عارض من عوارض الغفلة عن ذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٍ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 50].

9. عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: 42]، قال الخروبي: "وأخذ أهل التصوف - رضي الله عنهم - من هذه الآية معنى لطيفاً فيما هم بصدد من السلوك والسير إلى حضرة الله الكريمة فقالوا: الآية فيها إشارة إلى أن السالك لا يقنع بشيء دون الله، ولا يحط رحاله إلى أن يصل إلى حضرة الله

33 - الخروبي، رياض الأزهار، تح: الصادق الراقوبي، ص 251.

34 - الخروبي، رياض الأزهار، تح: نجيب علي رحيل ص 94.

عز وجل، ولا يقف في مقام، ولا في منزل بسبب ما يظهر له من عجائب حضرة الأفعال، ولا بما يحصل له من تلقاء حضرة الصفات من سنى الأحوال. وهذا منزع لطيف، ومعنى شريف"35.

قلتُ: وهذا ليس من التفسير الإشاري للآية، وإنما هو من باب التحلق والتخلي، والخواطر التي ترد على الصوفي عند تلاوته لبعض الآيات، ولن أخوض في معناه لقلّة زادي في طريقة القوم في سلوكهم إلى الله تعالى، والتقرب إليه.

10. عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى:48]، أضاف قائلاً: "تنبيه: أيها العبد إنما اختلفت عليك أنواع التجليات، وتنوعت عليك آثار معاني الصفات، فتارة تجلى عليك بأسماء جماله، فأذاقك من نعمائه، وتارة بأسماء جلاله، فأصابك ببلائه؛ ليدخلك عليه في حال النعمة من باب الشكر، وفي حال البلاء من باب الصبر، فبالشكر يهذبك، وبالصبر يؤدبك فأنت في مكتب التهذيب، والتأديب، فإذا تهدبت، وتأدبت، أخرجك من مكتب التهذيب والتأديب إلى حضرة الأنس والتقريب، فافهم عن الله تعالى في تقلب أحوالك، وقابل كل حالة بما هو طالبه منك فيها من أقوالك، وأفعالك، واعرف ما أراده منك في حالك و مالك"36.

قلتُ: ما أجمل هذا المعنى الذي استنبطه شيخنا من الآية، فقد أشار رحمه الله _ إلى عبادتي الشكر والصبر، اللذان تلخصان حال المؤمن مع الله تعالى، في تقلبات أحواله بين النعمة والابتلاء، وله شاهد من الشرع يؤيده، فعن صُهَيْبٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))37.

فمقتضى الأدب مع الله يستوجب على المؤمن، أن يشكر عند السراء، ويصبر عند الضراء، لكن شيخنا الفاضل يضيف معنى آخر لنا، وهو أن المؤمن إذا التزم بهذا الأدب مع الله، فإن المثوبة ستكون مزيداً من القرب من الله سبحانه والأنس به، فالمؤمن إما أن يكون من أصحاب اليمين، أو يرتقي ليكون من المقربين.

35 - الخروي، رياض الأزهار، تح: جبريل ناجي محمد أحمد ص76،75.

36 - الخروي، رياض الأزهار، تح: فوزية عيسى محمد ص297.

37 - صحيح مسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب "المؤمن أمره كله خير"، رقم الحديث (5322).

11. قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:13]، قال الخروبي: "قلت: وظاهر الآية نفي الخوف والحزن عن المؤمن المستقيم ابتداءً، وأن لا ينالهم ذلك أصلاً، وبهذا المعنى تظهر الخصوصية، التي تقتضيها الاستقامة، ولو كان ذلك بعد نفوذ الوعيد في البعض لم تكن خصوصية؛ إذ ذلك حاصل بمجرد الإيمان، فإن قلت: أي معنى أفادت (ثم) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾؟ قلت: دلّت على فسحة بين زمن التلبس بالإيمان، والتحقق في عقائده، والثبات على قواعده، وزمن التحلي بحلية الاستقامة، فإن مقام الإيمان عام، ومقام الاستقامة خاص، والترقي من حالة عامة إلى خاصة لا بد وأن يكون في فسحة من الزمن؛ لأن الحال يقتضي ذلك _والله أعلم_ "38.

قلت: هذا المعنى صحيح، فالاستقامة يكون ثوابها في الدنيا والآخرة، ومما يدل على أن الاستقامة مقام خاص، يأتي بعد الإيمان أن الله تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستقامة فقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:112]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى:15].

كانت تلك بعض النماذج التي وفقني الله للعثور عليها، بين طيّات رسائل الماجستير، للطلبة الذين تشرفوا بتحقيق هذا السفر المبارك، وقد لاحظت أن الشيخ أبا عبد الله الخروبي _رحمه الله_ قد التزم بضوابط التفسير الإشاري التي أقرها العلماء، وأتى بمعان رائعة، وإشراقات نورانية، مستوحاة من رحاب الآيات القرآنية، ترقق القلب، وتحيي الوجدان، وتزيد في الإيمان، وما أحوجنا إليها في هذا الزمان، الذي طغت فيه الماديات على الروحانيات، ولاحظت أيضاً أن شيخنا قد يأتي بمعان منتقدة يوردها عن بعض الصوفية ويبين وجه الصواب فيها، معلماً وموجهاً لغيره من الصوفية، وقد يأتي بأقوال صوفية ليست من باب التفسير، بل هي من باب ماأسماه هو (تعلق أو تخلّق أو تخلّ)، أشار لها في مقدمته، وميزها عن التفسير، وبذلك استبرأ لنفسه من الملامة، وبوجه عام لم يكثر الشيخ من التعرض للتفسير الإشاري في تفسيره، بل كان موجزاً في عباراته، منتقياً لألفاظه، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وجزاه عن العلم والتعليم خير الجزاء.

الخاتمة

القرآن الكريم معين من المعاني لا ينضب، ونور من الحقائق لا يخبو، ولا تزال مدارك العالمين وقلوبهم تتدبره؛ لإخراج كنوزه والكشف عن أسراره وحكمه، يعلّو ولا يُعلا عليه، تتقاصر عن الإحاطة بمعانيه العقول، وتعجز عن بلوغ مراميهِ الفحول، وكيف لا وهو كلام رب العالمين جل جلاله.

نتائج البحث

1. التفسير الإشاري منهج قديم في التفسير تعود جذوره إلى عصر الصحابة الكرام رضي الله عنهم.
2. التفسير الإشاري هو: ما يستفاد من معان خفية للآيات القرآنية، أشارت إليها المعاني الظاهرية من غير تصريح.
3. التفسير الإشاري ليس مقصوراً على الصوفية، ونسبته للصوفية تعود إلى ارتباط نشأة هذا التفسير كمنهج مستقل بالصوفية واشتهارهم به.
4. انقسم العلماء في التفسير الإشاري إلى مجيزين ومانعين، ولكل أدلته.
5. وضع العلماء ضوابطاً للتفسير الإشاري، تحفظه من الغلو والمخالفات.
6. ضوابط التفسير الإشاري تتلخص في تحكيم المعنى الظاهر للآيات واعتباره الأساس للمعنى الباطن، وضرورة وجود إشارة واضحة في الآية تدل على المعنى الباطن، وأن يكون المعنى الباطن صحيحاً في نفسه، ليس فيه إغاز أو تشويش على أفهام الناس.
7. صاحب التفسير هو أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي مولداً ونشأة، الجزائري مدفناً، عالم من علماء ليبيا في القرن العاشر الهجري، فقيه، صوفي، خطيب، مفسر، له العديد من الآثار العلمية.
8. تفسير "رياض الأزهار وكنز الأسرار" تفسير قيم من الناحية العلمية، جمع فيه مؤلفه بين النكات العلمية والحقائق والأسرار الصوفية.
9. التزم المفسر في تفسيره الإشاري بوجه عام بالضوابط التي أقرها العلماء، فيما نقله عن غيره، أو ما أضافه من استنباطه.
10. قد يذكر المفسر بعض التفسيرات المنتقدة للصوفية، ويبين وجه الصواب فيها، معلماً وموجهاً لغيره من الطلاب.
11. قد يذكر المفسر بعض الأقوال عن الصوفية، من باب (التعلق والتعلق والتخلي)، وليس من باب التفسير.

التوصيات:

أوصي القائمين على تحقيق تفسير "رياض الأزهار وكنز الأسرار" ، والمعنيين بنشر التراث الإسلامي، بطباعته وإتاحته للطلاب للبحث والدراسة، كما أوصى بتحقيق بقية كتب شيخنا الجليل أبي عبد الله الخروبي الطرابلسي، ونشرها.

كما لا يفوتني في ختام بحثي أن أشكر القائمين على هذا المؤتمر، أفراداً وجماعات، سائلة الله لهم العون
وجزيل الثواب، والفلاح في الدنيا والآخرة.

أهم المصادر والمراجع

- أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي، كلية الدعوة الإسلامية، 1424هـ/1995م.
- 7 رسائل ماجستير في تحقيق مخطوط تفسير "رياض الأزهار وكنز الأسرار" للشيخ أبي عبد الله الخروبي.
- منهج الإمام الخروبي في تفسيره "رياض الأزهار وكنز الأسرار"، د. محمد مصباح عقيلة البرغوثي، منشورات مجمع ليبيا للدراسات المتقدمة، ط1، 2018.
- أثر الفكر الصوفي في التفسير، دراسة ونقد، بهاء حسن سليمان زعرب، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن، الجامعة الإسلامية_غزة، 1434هـ/2012م.
- الاتجاه الصوفي عند أئمة تفسير القرآن الكريم، جوده محمد أبو اليزيد المهدي، الدار الجودية، مصر، ط1، 2007م.
- التفسير الإشاري بين الروعة والبدعة، قيس عبد الله محمد، جامعة Hitit Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi، 2014م
- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط7، 2000م.
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية، دار الوفاء 2005 ، ط3.
- التبيان في أقسام القرآن، ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت.
- الموافقات، الشاطبي، دار المعرفة - بيروت.
- الإتيقان، السيوطي، دار الفكر، لبنان، 1996 م.
- مناهل العرفان، الزرقاني، دار الفكر، بيروت 1996.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،